زوران جيفكوفيتش

المكتبة

ترجمة

نوف الميموني

تقديم

طارق الخواجي

إلى موريل... مع حبي

المكتبة الافتراضية

لا يخلو البريد الإلكتروني من العيوب. رغم أن مزودي خدمة الإنترنت يحاولـون جاهديـن حمايتنا من تلقي الرسـائل غير المرغـوب فيها، لكن بلا جدوى. فمتى ما فتحت رسـائلي الواردة على شاشـة حاسـوبي أجد أمامي رسـالة واحدة على الأقل أرسلها شخص مجهول. وقد أجد أكثر من رسـالة. أقصى عدد وصلني كان ثلاث عشرة رسالة دعائية، مُرسلة خلال بضع ساعات من جلوسي أمام حاسوبي.

وعندما حدث ذلك بلغ بي الانزعاج حد تغيير عنوان بريدي الإلكتروني، رغم ما سـببه لي من تعطيل. وأعطيت عنـواني الجديد إلى قلة من الناس، لكن تلك الخطوة لم تجدِ نفعًا أيضًا. ما زالت هذه الرسـائل المزعجة تصلني. شـكوت ما يحدث إلى مزودي الخدمة الذين أتعامل معهم، فاعترفوا اعترافًا ملتويًا أنهم لا يملكون حلاً لهذا الأمر. ونصحوني بأن أمحو أي شيء لا يثير اهتمامي، خاصةً أن فيروسات الحاسوب الخطيرة غالبًا ما تنتشر عبر الرسائل الإعلانية.

لم تكـن نصيحتهـم ذات قيمـة، حيـث إني أمسـح فعـلاً جميع الرسـائل الإعلانية التي تردني، وإن لم أكن أعلم وقتها بعلاقتها بنشر الفيروسات. كنـت في البداية أقرأها وكلّي حيرة من سـبب وصولهـا إليّ، لكن بعد أن عرفت ما طبيعتها، أخذت أمسح كل رسالة مجهولة المصدر دون إبطاء. لم أكـن حتى أمنحها لمحـة سريعة، رغم ما يتكبده مرسـلوها من جهود عظيمـة لجـذب انتباهـي بالعناوين الصارخـة الوامضة، والرسـومات

المزخرفة التي تروج عروضًا لن تتكرر ولن تعوض.

أحد تلك العروض مثلاً يعدني بالثراء ما بين ليلة وضحاها، إن أنا استثمرت مالي عبر وكالة ذات اسم جذّاب، مقرها إحدى دول المحيط الهادي التي لم أسمع عنها من قبل. وأخرى تدعوني لأن أصبح مبشرًا في أي كنيسة أختارها، مع التصريح لي بعقد طقوس التعميد، ومراسم الزواج والجنازة. وثالثة تدعي أنها ستمنحني الفرصة في أن أدير عقارب الساعة إلى الوراء خمسة وعشرين عامًا، بغض النظر عن سني، باستعمال علاج طبيعي حديث يطيل العمر. كما تلقيت فرصة فريدة لا مثيل لها لتحصيل حقي من أموال التعويضات بأمر المحكمة، إن كانت لدي مطالبة من هذا النوع، نظير عمولة تافهة لا تتجاوز ٪49 بالمائة. وأستطيع إشباع إدماني على لعب القمار، في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار، باللعب في كازينو افتراضي مضمون الأمانة. وآخر عرض وأغربه، هو ما وصلني من أنني أستطيع الحصول على مليونين ونصف مليون عنوان بريد إلكتروني نشط ومعتمد، أستطيع أن أرسل إليها ما أشاء وقتما أريد، مقابل مبلغ زهيد يُدفع خفية.

ربما كان سيكون مصير الرسالة التي بدأت هذه الحكاية سلة المهملات مع مثيلاتها، لولا أن اقتضابها الشديد جعلني أقرأها بلا قصد مني. كانت خلفية الرسالة سوداء خالية من الزخرفة. وبأحرف صفراء كبيرة احتلت السطر الأول، كُتب «المكتبة الافتراضية»، والشعار تحتها

يقول «لدينا كل شيء!» بأحرف زرقاء صغيرة جدًا. وهذا أمر بحد ذاته غريب، لأن هذه الرسائل تتخذ عادةً لهجة محفزة، مثيرة للأعصاب.
كانت تلك من أفظع المبالغات التي رأيتها على صفحات الإنترنت.
صحيح؟! كل شيء؟!
هذا قول لا تجرؤ أكبر المكتبات في العالم على ادعائه. لقد غاب عن ذهن من ابتدع هذه الدعاية عدد الكتب المنشورة خلال الخمسة آلاف عام الماضية. لم يفلح أحد قط في إنشاء مكتبة بهذه الضخامة وجمع كتبها في مكان واحد، حتى لو أسقطنا من الحسبان تلك الكتب التي اختفت وابتلعها النسيان.
وهذه الكلمة... افتراضية! لو أنهم يقصدون المعنى الحقيقي لعبارة «المكتبة الافتراضية»، فهذا يعني أن تكون مكتبة مؤلفة من كتب إلكترونية، والإنترنت حافل بمواقع عديدة تضم إصدارات إلكترونية. وأنا أزورها من وقت لآخر. لكن الكتب التي تعرضها هذه المواقع قليلة جدًا، ولا يتجاوز عددها بضع مئات من المؤلفات... قطرة في محيط إن قارناها «بكل شيء» التي تجزم هذه المكتبة بتوافرها لديها. ومن يجرؤ أن يطير به الأمل، فيظن أنه يمكن أن ينقل هذا الكم الهائل من الورق إلى الشاشة. ومن سيكلف نفسه هذا العناء والمشقة؟!
كنت واثقًا أنها حيلة لا محالة، لكن فضولي منعني من أن ألحق الرسالة بالأخريات. ولو كانت الرسالة عن أي شيء غير الكتب ما كنت التفت إليها بتاتًا. لكن نحن الكتّاب لا نستطيع تجاهل رسالة كهذه، كما لا

يستطيع ثور تجاهل تلويح القماش الأحمر أمام عينيه. لم أمسح الرسالة، بل مررت المؤشر فوق النص حتى تحوّل السهم إلى يد مرفوعة السبابة. حينها وجدت نفسي في موقع «المكتبة الافتراضية».

كان الانتقال سريعًا فلم ألحظ أي تغير يذكر. ظلت الخلفية سوداء لكن ظهرت إضافتان صغيرتان تحت اسم الموقع وشعاره. أول إضافة هي خانة البحث المعتادة؛ وهي مستطيل أبيض ضيق يكتب فيه الزائر ما يبحث عنه. غير أنك هنا لا تستطيع إدخال عنوان الكتاب أو أي بيانات أخرى، لأن كلمة «الكاتب» هي الكلمة الوحيدة الظاهرة في المستطيل. هززت رأسي ساخرًا... أهذه هي إمكانات المكتبة التي تفاخر بأنها «الأشمل»؟! وفي أسفل الشاشة ظهر عنوان بريد إلكتروني قصير.

كتبت اسمي في الخانة. لم أفعل ذلك لغروري كما قد يبدو. لقد اخترت نفسي لأنني أعلم الناس بكتبي، فإن كانت «المكتبة الافتراضية» تحوي حقًا «كل شيء» كما يدعي شعارها، فلا شك أنني سأجد كتبي الثلاثة فيها. لا أدعي أنني كاتب مشهور لكني متأكد أن كتبي ستكون موجودة في مكتبة تضم مؤلفات جميع الكتّاب. فمكان كهذا لا يمكن أن يكون فيه تفرقة أو محاباة.

لن تخرج نتيجة البحث عن أحد احتمالين. إن لم تخرج النتيجة المتوقعة، وهذا هو الاحتمال الأرجح، فإن الموقع مجرد خدعة حاكها شخص أراد أن يهزأ بالكتّاب، بل إنه يهزأ كذلك بالناشرين والنقاد، وأمناء المكتبات وبائعي الكتب، وعالم الثقافة بأكمله. من يدري أي مصيبة ستظهر لي بدلاً

من صفحة تعدد أعمالي. لكن ليس لي أن أتذمر، فلم يجبرني أحد على زيارة الموقع. وسأكون قد نلت جزائي كاملاً على فضولي إن كان حقًا مقلبًا.

لكن إن ظهرت لي كتبي على هيئة كتب إلكترونية، فالمصيبة أعظم. فأنا لم أمنح لأحدٍ حق نشرها إلكترونيًا، مما يعني أنها نسخ مقرصنة عن كتبي. وهذه مشكلة عصيبة. فالإنترنت مليء بهذه النسخ غير القانونية، ولا سبيل للحد أو الحماية منها حسبما سمعت، كما لا سبيل إلى حماية الشخص من تلقي الرسائل الإلكترونية من مصادر مجهولة.

إن كانت كتبي موجودة فعلاً في «المكتبة الافتراضية» فإن عملية البحث ستستغرق وقتًا طويلاً. يستحيل أن يتم البحث في ملايين المؤلفات في ثوانٍ، مهما كانت سرعة الحاسوب.

لكن هذا ما حدث!

فحالما نقرت فأرة الحاسوب لبدء البحث، ظهرت صفحة جديدة على الشاشة. لكنها هذه المرة كانت صفحة رمادية بأحرف بيضاء وسوداء، وظهرت صورة ملونة صغيرة خالفت النسق العام للصفحة.

ظننت في البداية أن السرعة التي ظهرت فيها الصفحة دليل قاطع على حدوث خلل، لكن عندما وجدت أنني أنظر إلى وجهي يطل من الشاشة... اقشعر جسدي. هذه صورتي بلا شك، رغم أنني لا أتذكر متى أو أين التقطت. أبدو فيها أصغر سنًا، وإن لم أتبين كم عمري بالضبط.

وفي الجانب الأيسر من الشاشة تحت الصورة أُضيفت نبذة عن حياتي.

كانت كل المعلومات المذكورة صحيحة، إلا آخر فقرة. أنا ما زلت حيًا!
هل حصل لي شيء دون أن أنتبه؟!
كانـت الحقائق المدرجة عن وفاتي غريبة وغـير واضحة، فكلمة (مات) متبوعة بتسـعة تواريـخ مختلفة، تفصل بينها الفواصـل. وكانت الأرقام باللون الأبيض، خلافًا للكلمات التي كانت بالأسود. كان أقرب تاريخ بعـد 15 عامًـا، أما أبعـد تاريخ فكان بعـد نصف قرن تقريبًـا. يبدو أن لمحرر الصفحة حس من الفكاهة السوداوية.
وجـدت في طرف الشاشـة الأيمن قائمـة بكتبي، لكنها لم تنتـهِ بعد الكتاب الثالث بل استمرت حتى الكتاب رقم واحد وعشرين. هذا هراء! لن أدعي أن بيبليوغرافية ثرية كهذه لا تسرني، لكنها ليست من مؤلفاتي. ظهر في هذه القائمـة كسـابقتها لونان؛ أسـود للكتب الثلاثة التي نُـشرت فعلاً، وأبيض للثمانيـة عـشر كتابًا الأخرى. وكانـت تلك الكتب الأخرى مرتبة بحسـب تاريـخ صدورهـا. أولها كتاب سـينشر العام المقبل، ثم تتـوالى الإصدارات عـلى مدى خمسـة وأربعين عامًا، حتى تاريخ صدور آخـر كتاب. إذًا لم يكن مدبر المقلب ذا عقل مختل فحسب، بل إنه يظن نفسه متبصرًا بالغيب.
لكـن هـذا لا يهـم. ما يهم هو أن أعـرف إن كان هذا مـن صنع عاطلٍ لم يجـد عملاً يشـغله إلا اخـتراع هذا العبـث. والإنترنت مـليء بأناس لا يعنيهـم إن بذلوا الجهد والوقـت في تدبير مقالب كهذه، وأولهم قراصنة الحاسـوب. هؤلاء الذين يولدّون فيروسـات مدمّـرة وينشرونها، رغم

أنهم لا يجنون أي فائدة سوى المتعة الخبيثة. ضغطت بالسهم على أولى كتبي الثلاثة، واثقًا أن لا شيء سيحدث، لكن السهم تحول للأسف إلى يدٍ مرة أخرى، وامتلأت الشاشة بالنص.

عرفت من الجملة الأولى أن هذا النص هو فعلاً نص روايتي الأولى. غمرتني موجة من الغضب. كتابي مشاع للعالم بأسره دون إذن ولا مقابل مالي! كيف يجرؤون؟! سرقة في وضح النهار! يا لهذه الوقاحة!

ثم انتعش الأمل في قلبي فجأة. فلربما ليس هذا نص الكتاب كاملاً، بل مجرد مقطع مقتطف منه، وهذا أهون الشّرين. تحركت بالمؤشر حتى وصلت نهاية النص، فتبخر أملي الضئيل. كان الكتاب منشورًا بأكمله، من أول كلمة إلى آخر كلمة. لم أتعب نفسي بفتح الكتابين الآخرين لأنني أعلم يقينًا ما سأجد فيهما.

أمسكت الفأرة بسخط أعمى، ونقرت على الزر فعاد بي إلى الصفحة السابقة. وضعت المؤشر فوق العنوان الإلكتروني في أسفل الصفحة ثم نقرت. فتح المتصفح صفحة رسالة إلكترونية فارغة، وعنوان الموقع يحتل خانة «إلى». حدقت في الصفحة البيضاء للحظات وأنا أفكر. حزمت أمري فكتبت «قرصنة» في خانة «العنوان» وشرعت في كتابة الرسالة.

السادة الكرام

وجدت مفاجأة مزعجة جدًا تنتظرني عند زيارتي لموقع «المكتبة الافتراضية». فقد وجدت أن رواياتي الثلاثة منشورة كاملة ومتاحة

للجميع. وحيث إنني بصفتي صاحب حقوق النشر لم أمنح تصريحًا لنشرها في الموقع، فإن هذا يعد من جرائم القرصنة الأدبية التي يعاقب عليها القانون. وعليه، فأنا آمركم بسحب أعمالي من موقعكم بلا تأخير. كما أود إخطاركم بأن محاميّ سوف يرسل إليكم قريبًا طلب تعويض عن الأضرار التي تسبب بها نشر كتبي بطريقة غير مشروعة في موقعكم، والمعلومات الخاطئة المهينة التي أضفتموها إلى سيرتي وقائمة أعمالي.

ختمت الرسالة باسمي دون تحية وداع. أعرف أن هذا ليس من الأدب، لكن لم أستطع التفكير بأي عبارة مناسبة. ومن الصعب أن أختمها بطريقة رسمية كأن أقول «المخلص» أو «مع التحية». كما أنني لقيت صعوبة في أن أكتب رسالتي بلهجة حادة، فلم يسبق أن كتبتُ رسالة كهذه. أعتقد أن من الضروري أن تكون الرسالة قاسية ومتوعدة، رغم أنني والحق يقال أشك أنها ستجدي نفعًا. فأقصى ما يُرجى منهم هو أن يزيلوا الصفحة التي تحتوي على كتبي. ولا أتوقع أن أتلقى منهم أي تعويض أبدًا. حتى إنني أشك أن أتلقى منهم أي رد.

لكنني كنتُ مخطئًا.

وصلني الرد فور إرسالي لرسالتي. والتفسير الوحيد لذلك هو أن محرري «المكتبة الافتراضية» يتلقون سيلاً من رسائل الشكوى مثل رسالتي، ولذا فقد أعدّوا ردًا جاهزًا يُرسل آليًا في حال تلقي أي شكوى. وهم على الأرجح لا يتلقون إلا الشكاوى. فلنرَ كيف سيدافعون عن أنفسهم؟